الحُطيئة

— «×» —

شاعرٌ مخضرمٌ أدرك الجاهلية والاسلام وعمّر بهما طويلاً ثم ادركتهُ الوفاة وقد بلغ الثمانين . اسمه جرول العبسيُّ وكنيته ابو مليكة والحطيئة لقب غلب عليه لقصره ودمامته . وهو احد فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرف في كثير من فنون الشعر كالمديح والفخر والنسيب . يعدونه في الطبقة الثالثة بين متقدمي شعراء الجاهلية . وهو صاحب البيت المشهور وهو فيما قيل احكم بيتٍ روي عن العرب :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرفُ بين الله والناس

ولكنه مع ذلك كان هجّاءً خبيث اللسان دنيء الطبع كثير الإلحاف اشتهر بقبحه ورثاثة زيه وسوء نسبه وفساد دينه لم يسلم احد من لؤمه وشرّه حتى أبويه واهله وذوي قرابته ومما قاله في هجاء أمه :

تنحي فاجلسي مني بعيداً ... أراح الله منك العالمينا
اغربالاً اذا استودعت سراً ... وكانوناً على المتحدثينا
حيانكِ ما علمتُ حياة سوءٍ ... وموتكِ فديسرُّ الصالحينا

وقال في زوجته :

أطوّف ما أطوّف ثم آوي ... الى بيتٍ قعيدته لكاع

وقال في ابيه وأمه :

ولقد رأيتك في النساء فسئتني ... وابا بنيكِ فساءني في المجلس

وهو في كل ذلك فذٌّ لا شبيه له ولا مثيل الاّ الهلالي شاعر حماة وهو من المعاصرين أدركته وعاشرته في مقتبل ايامي وسمعت منه قوله في هجاء أمه :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تالله لولا الخوف من دعواتها والخاطئات مجابة الدعوات
لهجوتها هجواً أخس من الـ ... لكن خشيتُ نجاسة الكلمات

وقوله في هجاء ابيه :

لو كان مثلك في زمان محمدٍ ماجاء في القرآن برُّ الوالدِ

وهو من امرّ الهجاء وأسوأه كما لايخفى .

(عود الى الحطيئة) ويستدلون على سوء نسبه انه كان سأل أمه الضراء وهي أمة لأوس بن مالك — عن ابيه فتلكأت وأجابته بقول غير سديد فغضب وخرج عنها لاحقاً باخوته بني الأفقم وفي ذلك يقول :

تقول لي الضراء لست لواحدٍ ولا أثنين فانظر كيف شرك اولئكا
وانت امرؤٌ تبغي اباً قد ضللته هُبلتَ امّا تستفق من ضلالكا

وهكذا عاش متدافع النسب . وكان قد أسلم في صدر الاسلام الاول على عهد النبي (ص) فلما كانت الردّة على عهد ابي بكر الصديق كان في طليعة المرتدين وفي ذلك يقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً اذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ثم أسلم بعد ذلك نفاقاً ومجاملةً وبقي على حالاته الجاهلية حتى مات . قيل التمس يوماً من يهجوه فلم يجد فقال :

ابت شفتاي اليوم الا تكلماً بسوءٍ فلا أدري لمن انا قائله

وجعل يردّده حتى ورد غدير ماءٍ صافٍ رأى فيه وجهه فقال يهجوه :

ارى لي وجهاً شوّه الله خلقه فقبّحَ من وجه وقبّح حامله

وهذا من أعجب حالاته .

وقيل مرّ رجلٌ يعرف بابن الحمامة بالحطيئة وهو جالس بفناء بيته فبادره بالسلام فقال له (قلتَ ما لا ينكر) قال اني خرجتُ من اهلي بغير زاد قال (ماضمنتُ لاهلك وراك وراؤك اوسع لك) . قال افتأذن لي ان استظلّ ببيتك قال (دونك الجبل فهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يظلك) . قال انا أبن الحمامة . قال (انصرف وكن أبن اي طائر شئت) وهـذا لعمري غاية ماينتهي اليه البخل « وقد رويت هذه القصة مع زيادة قليلة عن ابي الاسود الدؤلي ايضاً » .

قال الأصمعي : لم ينزل ضيف بالحطيئة الا هجاه . وقال عمرو بن العلاء كان الحطيئة متين الشعر شرود القافية وما تشاء ان تطعن في شعر شاعر وجدت فيه مطعناً وما اقل ما تجد ذلك في شعر الحطيئة . وانما أخّره عن اللحاق بكبار الشعراء واعاظمها سوء اخلاقه وضعة مكانته وقبح هيأته .

قيل أراد يوماً السفر فأتته امرأته براحلته وهي تقول :

اذكرتحنّ منا اليك وشوقنا واذكر بناتك انهن صغار

فعدل عن رحلته وقال لا سافرتُ بعد اليوم ابداً .

وقيل نزل الحطيئة في سنة ضيقة ببني مقلد بن يربوع فمشى بعضهم الى بعض وقالوا هذا رجلٌ لا يسلم احد من بوادر لسانه تعالوا نسأله عما يحب فنفعله به وعما يكره فنتجنبه فأتوا اليه وسألوه فقال لا تكثروا زيارتي فتملوني ولا تقطعوها فتوحشوني ولا تجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم ففعلوا ما أراد واحتاطوا لذلك كل الاحتياط فلم يجد ما يؤاخذهم به فلما انقضت السنة رحل وهو يقول :

جاورتُ آل مقلدٍ فحمدتهم اذ ليس كل اخي جوارٍ يُحمدُ

ايام من يرد الصنيعة يصطنع فينا ومن يرد الزهادة يزهد

وممن اشتهر بهجائه اياه الزبرقان[1] بن بدر وهو احد سادات العرب واعلامها كان النبيُّ ولاّه عملاً وأقرّه عليه ابوبكر في خلافته فقدم الى المدينة في سنة مجدبة يؤدي الى عمر صدقات قومه فلقيه الحطيئة ومعه أسرته في بعض الطريق فقال له الزبرقان وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة اين تريد ؟ قال العراق لعلّي أجد فيه رجلاً يكفيني مؤونة عيالي في هذه السنة وأصفيه مدحي ابداً . فقال الزبرقان : قد اصبتَ ذلك عندي فسأوسعك لبناً وتمراً وأجاورك اكرم جوار ثم عرّفه بنفسه وبعث به الى زوجته فأكرمته عملاً بوصية زوجها . وكان بغيض بن عامر وعشيرته بنو أنف الناقة يفاخرون

(١) من اسماء القمر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الزبرقان وقومه فلما رأوا منها التقصير بحق الحطيئة بعد ان رأت من ذميم خلقه وزري حاله ما رأت اغروه على التحول الى جوارهم كيداً بالزبرقان وحبًا بالتمداح فأبى وقال هذا شأن النساء ولست بعاتب على صاحب المنزل فانه براء من ذنب المرأة . ثم تمادى جفاء المرأة له لبعض الاسباب وألحّ عليه بنو أنف الناقة ان يأنيهم حتى ابرموه فتحول الى جوارهم فضربوا له قبةً وزينوها واكثروا له من اللبن والتمر واعطوه كسوةً وإلاّ . فلما عاد الزبرقان أُخبر بقصته فجاء بني أنف الناقة يعاتبهم ويطلب ان يردوا عليه جاره فأبوا وقالوا انت اطرحته واضعته وهو الآن جارنا . ولما تمادى بين الفريقين اللجاج خيّروا الحطيئة فيما يريد فاختار جوار بني انف الناقة وقال للزبرقان انني لم أترك جوارك عن سخط وذم فرضي منه وانصرف واخذ الحطيئة يمدح بني بغيض ومن جملة ماقال فيهم :

قومٌ همُ الانف والاذناب غيرهمُ ومن يساوي بانف الناقة الذنبا

وكان هذا اللقب عاراً عليهم فصار من يومئذ فخراً لهم . ثم لم يزالوا يغرون الحطيئة بهجاء الزبرقان ويكثرون له الهبات والوعود حتى هجاه ومن جملة هجائه البيت المشهور :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

فاستعدى عليه الامام عمر فقال لا أراه هجاك في هذا القول وكان حسّان بن ثابت حاضراً فقال له بل هجاه أشدّ الهجاء فاستقدم عمر الحطيئة وحبسه في جب فقال يستعطفه :

ما ذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
القيتَ كاسبهم في قعر مظلمةٍ فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ
انت الامام الذي من بعد صاحبهِ القى اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها اذ قدّموك لها لكن لانفسهم كانت بك الأثر

وهذه الأبيات غاية في السهولة والانسجام ظاهر على دبباجتها عدم التكلف .

فرقّ له عمر وأفرج عنه وقيل بل سلمه الى الزبرقان فقاده بعمامته ليعاقبه فاستوهبته منه غطفان . وقيل ان عمر قال له لما أطلقه إياك وهجاء الناس قال اذاً يموت عيالي جوعًا هذا مكسبي ومنه معاشي . فاشترى عمر منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم .

ولما أدركته الوفاة قيل له اوص يا ابا مليكة فقال ويلٌ للشعر من رواة السوء ثم أنشد قول ضابي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لكل جديد لذة غير انني رأيت جديد الموت غير لذيذ

ولما الحوا عليه بالوصاة وسألوه بما يقول في عهده قال هم عبيد فمن ما عاقب الليل النهار . قالوا فيم توصي للفقراء ، قال أوصيهم بالالحاح في المسألة فانها تجارة لن تبور . قالوا فما تقول في مالك ، قال للانثى ضعفا ما للذكر ، قالوا ليس هكذا قضى الله ، قال ولكني هكذا قضيت . ثم طلب بعد حديث لايجدر بنا ذكره ان يحملوه على اتان و يتركوه راكبا حتى يموت زاعما ان الكريم لا يموت على فراش ، فحملوه على أتان وجعلوا يذهبون به ويجيئون حتى فاضت روحه وهو يقول :

لا أحد ألأم من حطيئة هجا بنيه وهجا المربئة

من لؤمه مات على فريئة (١)

وهذه الوصية ان صحت فهي دالة على ان الرجل أدركه الخرف في أخريات ايامه حتى لم يعد يعقل ماذا يفعل ، لان المجون لا سبيل اليه ، وشبح الموت ماثل لديه .

هذا بل مايؤثر عن الحطيئة أثبتناه في هذه الصفحات تفكهة لقراء مجلة المجمع الذين قلما رأوا بين ثناياها غير الجد والعويص من المسائل ، فما عليهم لو تملحوا منها الفينة بعد الفينة بامثال فكاهات الحطيئة ونوادره فانه على كل حال يمت الينا بنسبة الادب واللغة والشعر فما هو عنا — وان كرت العصور دونه — بغريب او بعيد .

عضو المجمع العلمي

سليم عنحوري

(١) الفريئة الأتان اي أنثى الحمار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
- www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net